رجال غيروا وجه التاريخ الإنسانى

صفوة النابهين

أمير الأمراء.. أمين الأمة

راهب الليل.. فارس النهار

• أبو عبيدة بن الجراح •

obeikandl.com

obeikandl.com

فى هذة القصة وقفة لابد منها.. ونحن أمام صورة باهرة للزهد والورع والترفع.. صاحبها عكف على نفسه حتى صقلها وزكاها، وهو أحد الفرسان البارزين الذين شاركوا فى مسيرة تصحيح التاريخ الإنسانى..

تبدأ الواقعة، حين يزور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بلاد الشام، يتفقد فتوحات المسلمين بعد سقوط قلاع وقواعد الروم، وتقدم راية الإسلام بقيادة أمير الأمراء وقائد جيوش الإسلام أبو عبيدة بن الجراح.. وبلاد الشام ـ وقتئذ ـ حاضرة، تموج بالمباهج والنعم.. وقبل أن تغيب شمس ذلك اليوم، يتجه أبو عبيده إلى أمير المؤمنين، ويصحبه إلى داره.. دار حاكم بلاد الشام.. بيت متواضع من حجرتين.. ويتلفت عمر يمينا ويسارا، ولا يجد شيئا من متاع الدنيا سوى كفاف.. أو أطياف كفاف.. لا يجد أمامه إلا سيف أبو عبيدة ،وترسه، ورحله.. وهو لو شاء كان له فراش أطيب وأنعم!! ويسأله الفاروق عمر مبتسما، وهو فى قرارة نفسه راضيا: هذه دارك!! ألا اتخذت لنفسك مثلما يصنع الناس؟! ويقول أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، هذا يبلغنى المقيل!!

هذه دار حاكم بلاد الشام وقائد أكثر جيوش المسلمين عددا، وأشدها بأسا، وأعظمها فوزا.. وكان عطاؤه وراتبه ﷺ كثيرا وفيرا بحكم عمله ووظيفته، ولكنه كان يأخذ منه ما يكفيه.. وحين يلحظ ملامح الدهشة على وجه الفاروق عمر.. يتمتم "أبو عبيدة" بينه وبين نفسه بآيات الذكر الحكيم: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ..

كان عمر بن الخطاب يختار ولاة المسلمين، فى دقة وتحفظ من يختار مصيره، وكانت بصيرته الثاقبة لا تخيب أبدا.. ولذلك كانت دهشته أقرب إلى الرضى والسعادة.. وكان تواضع أبو عبيدة فى نفس الوقت يمسك عليه لسانه، وقبل أن يقول لأمير المؤمنين "دارى هناك، نظعن إليها، ونعمل لها ".. وكان الفاروق عمر أدرى الناس وأكثرهم معرفة ويقينا بمن هو "ابن الجراح ".. وأن إيمانه، وولاءه، وعظمة نفسه، واستقامة ضميره ونهجه، بلغت المدى، وانتهت إلى ذروة الكمال الميسور، حتى يرفعه الرسول ﷺ بين أصحابه قدورة ومثلا، فيقول: "إن لكل أمة أمينا، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح.. "

.....

.....

ومما يقتضى حقه من التأمل، فى هذه القصة.. حكمة وفلسفة ورؤية ابن الجراح:

كانت جيوش المسلمين تضرب فى مناكب الأرض هادرة ظافرة، وكان أبو عبيدة وهو فى أرض الشام على رأس جيوش المسلمين، يرى ويراقب الانهيار السريع الذى تلحقه مواكب الفاتحين بالبلاد، ويتأمل سقوط هيبة القوتين العظميين ـ الفرس والروم ـ وبعد أن كانت تملأ صدور الناس رعبا فى كل مكان.. كان يرى أمم قاهرة، ظاهرة، لها الملك، ولكنها تركت أمر الله، فانهارت.. إذن كانت القضية واضحة جليّة أمام ابن الجراح، وهى أن تلك القوى العظمى كانت تعانى من "إفلاس "روحانى.. تفتقد لروحانية صادقة تعصمها، وتفتقد لدين صحيح يصلها بالله.. ويصل إلى ما يصل إليه من تأمل ورصد.. ثم

يتلو قولـه تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ . .

وهو لا يرى فى نفسه سوى أمانة استودعه الله إياها، لينفقها فى سبيله وفى مرضاته. . وكان ﷺ وهو من احترف صناعة الجهاد فى سبيل الله. . أكثر ولاء للدين الذى آمن به، وبالرسول ﷺ الذى بعثه الله رحمة للناس كافة. . وكان لابد أن تفتح الأبواب أمام هذه الرحمة وأمام دين التوحيد. . ومن هنا تتجلى مواقف عظمته الخارقة:

أولا. . فإن على قمة مسؤولياته، حماية رسول الله ﷺ . . النور والهداية للعالمين. . وفى كل معركة يتفق مع نفسه على أن يكون قريبا من رسول الله ﷺ . . كان يقاتل وعيونه تراقب الرسول ﷺ فى حرص وقلق. . حتى إذا جاءت "غزوة أحد" وقد بلغ القتال ذروة ضراوته، استشعر الخطر الذى قد يحيط برسول الله ﷺ، وفى لحظة كاد أن يفقد صوابه حين يرى خطر يقترب من الرسول ﷺ ، ويندفع كالسهم، ويضرب بسيفه طائفة من المشركين تحاصر مكان رسول الله ﷺ، وتشتعل الدماء فى رأسه غضبا حين يرى الرسول ﷺ قد رمى ودمه الذكى يسيل على وجهه. . ويصرخ صوته هادرا، ويضرب بسيفه فى كل اتجاه: "إلا رسول الله ﷺ . . كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟!" . .

ويكاد قلبه ينفطر خوفا وهلعا، وهواجس القلق تضرب وجدانه، خشية أن يصاب الرسول ﷺ بأذى. . الخوف والقلق على رسالة التوحيد ومستقبل دولة الإسلام. . هل يمكن أن يرى الخطر محيطا بمن بعثه الله رحمة للعالمين ؟! كانت لحظة فاصلة وفارقة فى تاريخ الإسلام،

يراها أبو عبيدة أمامه.. يبصر المشهد قبل أن يبلغه، وينطلق كأنه يطير طيرانا، وقد بذل حياته للتضحية.. ويرى حلقتين من حلق المغفر الذى يضعه الرسول فوق رأسه قد دخلتا فى وجنتى النبى ﷺ، فلم يطق صبرا، واقترب يقبض بثناياه على حلقة منهما حتى نزعها من وجنة الرسول ﷺ، فسقطت ثنيته، ثم نزع الحلقة الأخرى، فسقطت ثنيته الثانية (من بين أسنانه الأمامية) فكان أبو عبيدة فى الناس أثرم - ساقط الثنتين - ولم يفارق رسول الله ﷺ لحظة واحدة حتى عاد سالما إلى المدينة..

.....

.....

وثانيا.. حين اتسعت المسؤوليات وعظمت.. كان تفوقه، واقتداره، وتفانيه، وإصراره، وعظمته الخارقة، هى بعض الفضائل العظيمة فى هذا الصحابى الجليل الذى يرى أمامه الغاية التى تناهت فى العدالة والسمو.. نشر رسالة الدين الجديد، من أجل إضاءة الضمير الإنسانى بحقيقة التوحيد، وتحرير البشرية من أغلال وثنية القرون، والفصل العنصرى بين عباد الله، وتغيير وجه التاريخ الإنسانى الذى كان لا يحفل إلا بالسادة والنبلاء.. وكانت الفتوحات الإسلامية للعالم القديم، هى بوابة التحرير للبشرية تحت رايات حقيقة التوحيد.. ولذلك استشعر خطورة المسؤولية الملقاة على عاتقه، حين استلم راية قيادة جيش المسلمين من خالد بن الوليد.. واتجه مباشرة، وهو الخبير بلغة السرائر والقلوب، فاحتضن خالد وقبله بين عينيه، وعقد مجلس تشاور لقادة الجيش لإعداد خطط الهجوم.. وفى اليوم التالى صلى بالجيش صلاة الظهر، ثم استقبل

جنوده مكبرا أربعا: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر، ودوى الكون بأصوات المكبرين، ومد ذراعه كالسهم النافذ، مشيرا إلى العدو، وصاح فى جنوده: "هيا.. على بركة الله".. واستأنف القتال ضراوته وقسوته وطحنه، وتصدعت صفوف جند الروم، وزحفت جيوش الإسلام تحرر بلاد الشام، وتواصل زحفها فى مطاردة فلول الروم، وتبشر بمولد العالم الجديد..

كان هناك دائما.. فى الصف الأول دوما.. جنديا باسلا، أمينا، لا تنبو لسيفه ضربة.. مؤمنا ورعا.. فى مقدمة الصفوف يبتغى وجه الله..

لقد نذر حياته للإسلام.. ولم يخلف موعده مع الله فى عبادة، ولا فى جهاد.. ولا يكاد الليل ينتصف حتى ينهض قائما، وجسده لا يزال ثقيلا، مرهقا، من الجهد الذى بذل فى ساحات القتال، فيتوضأ، ويظل يناجى ربه ويبكى، ويصلى ويبكى.. وبين جنوده لا يحسبه أحد حين يراه إلا جنديا من المقاتلين.. وفى الليل العابد الأواب.. إنه الراهب بالليل، والفارس بالنهار، أبو عبيدة (عامر بن عبد الله بن الجراح) أول من لقب بأمير الأمراء، وقد جعله رسول الله ﷺ أميرا على جيش فيه الصديق أبو بكر والفاروق عمر.. وهو الذى شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد جميعا، سبعا وعشرين غزوة مع رسول الله ﷺ، وأكثر من عشرين أخرى مع صحابة رسول الله ﷺ.. وهو القوى صاحب العزيمة التى لا تهتز، والذى أرسله النبى ﷺ مددا لعمرو بن العاص فى غزوة "ذات السلاسل".. وهو من يتألق إيمانه وتصميمه فى وجه الخطر، فينجز المهام فى استبسال عظيم، وقد أرسله النبى ﷺ فى إحدى

الغزوات أميرا على ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا من المسلمين، وليس معهم زاد سوى "جراب تمر "وكان السفر طويلا، والمهمة صعبة، وحين ينفد التمر، يجمعون ورق الشجر ويسحقونه، ثم يسفونه ويشربون عليه الماء، حتى سميت هذه الغزوة بغزوة "الخبط "، ولكن الصحابى الجليل ابن الجراح ومن معه من المقاتلين، لا يبالون بجوع ولا بمشقة السفر، حتى ينجزوا المهمة التى كلفهم بها رسول الله ﷺ على أكمل وجه..

وسيرة الصحابى الجليل، الطويل القامة، النحيف الجسم، أقرب إلى ملحمة سطرها التاريخ الإنسانى بحروف من نور.. وقد زادها علوا وتشريفا، حب رسول الله ﷺ لأبى عبيدة بن الجراح، والذى حظى بالثقة الغالية والتقدير والثناء، وقد تجلى ذلك يوم جاء وفد "نجران "من اليمن، مسلمين، وسألوا الرسول ﷺ، أن يبعث معهم من يعلمهم القرآن والسنة والإسلام، فقال لهم الرسول: "لأبعثن معكم رجلا أمينا، حق أمين.. حق أمين.. حق أمين "ثم نظر إلى الجمع من الصحابة الأجلاء، حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح.. فقال: أخرج معهم، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه..

واستقبل أبو عبيدة واجبه فى تفان وغبطة.. وهو من يدور مع الحق حيث يدور.. عف اللسان، عف الضمير، كثير البكاء من خشية الله.. راهب الليل، فارس النهار.. ومما يدعو إلى أعظم التأمل فى شخصية أمير الأمراء وأمين الأمة، هو ما تحمله تلك الكلمات التى قالها عمر بن الخطاب وهو يجود بأنفاسه، قبل أن يستقر رأى الصحابة، ويرتاح ضمير عمر، وتهدأ روحه، مع اتفاق أهل الشورى على من يخلف الفاروق عمر أميرا للمؤمنين.. قال عمر رضي الله عنه، وهو فى سكرات الموت، قبل أن

يلقى ربه راضيا مرضيا: "لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته، فإن سألنى ربى عنه، قلت: استخلفت أمين الله، وأمين رسوله"..

ورجل من هذا الطراز.. كان من صفوة النابهين، والذين نهضوا بالدور الجليل وعقدوا عزمهم ونواياهم على نشر رسالة التوحيد وتغيير وجه التاريخ الإنسانى..

obeikandl.com